قواعد تربوية

رمضان ١٤٤٤

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

يوم الخميس 1 رمضان

(سورة البقرة 17- 20)

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك الله، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بعثه الله رحمة للعالمين هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، فجزاه الله خير ما جزى نبيًا من أنبيائه، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى صحابته وآل بيته، وعلى كل من أحبهم إلى يوم الدين.

نبدأ أول لقاءاتنا في هذا الشهر المبارك، نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يجعله شهرًا مباركًا على المسلمين وأن يجعلهم يزدادون به إيمانًا وعلمًا عن رب العالمين، يصومون نهاره ويقومون ليله طالبين الأجر، مخلصين في المقصد، صادقي الإرادات، ونكون من المؤمنين المتقين جميعًا، الذين يسمعون كلام الله يتلى ويفهمونه ويزدادون به يقينًا، اللهم آمين.

وفي هذه الأيام المباركة لا بد أن تزيد عنايتنا بما نزداد به إيمانًا، لا بد أن نزيد عناية بأوصاف المتقين فنعرفها ونكون منها على يقين، وأيضًا لا بد أن نعرف صفات المسرفين المكذبين، وصفات المنافقين حتى نكون أبعد ما نكون عنها، ونكون في نهاية هذا الأمر كله من المطمئنين للصراط المستقيم، البعيدين عن الحرج وعن الاعوجاج وعن السبل، سواء كانت سبل الكافرين أو المنافقين، أعاذنا الله وجميع المسلمين من سبل الكفار والمنافقين!

وأحسن ما يقال في بيان سبيل أهل الإيمان وسبيل أهل النفاق وأهل الكفر: مطلع سورة البقرة وفيه:

- وصف للمؤمنين المتقين وسبب بلوغهم هذا اليقين.
- ووصف للكفار وسبب بقاؤهم على ذلك.
- والوصف التفصيلي والحظ الأكبر في مطلع السورة في بيان حال المنافقين.

فإذا نظرنا إلى مطلع السورة نجد أنها بدأت بالحروف المقطعة:

(الم(1))

والحروف المقطعة -كما هو معلوم- إشارة إلى شأن عظيم، وهو شأن الكتاب، وأن هذه الحروف تدل على أن هذا الكتاب من جنس هذه الحروف لكن مع ذلك أهل اللغة وأهل الجودة فيها وأهل أسواقها الذين كانوا يقيمون أسواقًا للبلاغة لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا الكتاب العظيم!

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2))

أخبر -سبحانه وتعالى- عن هذا الكتاب أن فيه هدى، لكن لمن هدى؟ (لِلْمُتَّقِينَ).

(ذَلِكَ الْكِتَابُ) إشارة إلى رفعة منزلته.

(لَا رَيْبَ فِيهِ)لا شك فيه بوجه من الوجوه، إنما فيه علم اليقين. الذي يعتقد اليقين سيكون له هدى، ولا يعتقد هذا الاعتقاد إلا المتقين.

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4))

ثم أتت صفاتهم فإن يقينهم بالكتاب تبين بوضوح في كونهم (يؤمنون بالغيب) وإذا آمنوا بالغيب الذي تبين في نهاية السورة: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)[1] هذا الذي ظهر في نهاية السورة هو الذي ظهر في حديث الرسول ﷺ الذي يحدد أركان الإيمان: الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر...وهم الذين يخبر الله -عزَّ وجلَّ- عنهم في آخر السورة أنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بكل الرسل.

فإذا جمعنا ما ورد في آخر السورة مع الحديث تبين لنا هذا الغيب العظيم الذي يؤمنون به، وأثر أنهم يؤمنون بالله وبكماله وبجلاله وبعظيم سلطانه، وبآثار أفعاله عليهم، وبقربه وبعلمه، سبحانه وتعالى، فهم: يقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون، وهم -كما تبين لنا- يؤمنون بما أنزل على النبي ﷺ وبما أنزل على من قبله، والأمر ظاهر في كونهم بالآخرة هم يوقنون، وهذ من آثار الغيب العظيم، فهم يؤمنون بالله -عزَّ وجلَّ- وبكماله وإيمانهم أعظم دافع لهم للعمل الصالح.

فالمتقون يؤمنون بالله ويؤمنون بلقاء الله إيماناه بلغ حد اليقين، (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)، أخبر الله -عزَّ وجلَّ- عنهم بهذا الوصف العظيم:

(أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

(أُولَئِكَ) إشارة إلى درجتهم العالية.

---

[1]) البقرة: 285.

(عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ) أنهم على سبيل الله، على الطريق المستقيم.

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فحكم عليهم بالفلاح، وهذه النظرة السريعة لهذه الآيات كمقدمة نعرف بها الصنف المخالف، عرفنا هنا أن أهم صفة عند المؤمنين: الإيمان بالغيب الذي هو دافع للعمل الصالح. فنحن في هذا الشهر الكريم سيكون أكثر ما يشغلنا: أن نكون من أهل الإيمان واليقين بما أخبر الله -عزَّ وجلَّ- من شؤون الغيب. فكل خبر نقرؤه في القرآن وكل حكم نسمعه فيه، نعلم أنه صادر من رب العالمين فيكون في قلوبنا له يقين.

هذا سيقابل الصنف الثالث الذي سيكون موضوعنا في النقاش، وهو صنف: المنافقين.

بعدما وصف الله الذين كفروا وكيف أنه خُتم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، وهؤلاء لا شأن لنا بهم الآن، نريد أن ننتقل بالآيات إلى أن نصل إلى أوصف هؤلاء المنافقين حتى نصل إلى المثلين الموجودين في هذا السياق فنشرحهما، عسى الله أن ينفعنا بهما.

في الآية الثامنة من سورة البقرة قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ)(8)

(وَمِنَ النَّاسِ) هذا صنف من الناس.

(مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) هذه الآية خاصة التي بدأ بها وصف هذا الصنف هي أكثر آية تهمنا في أوصافهم، وإن كانت أوصافهم كلها مهمة، لكن سنأخذ هذه ونذهب إلى المثل.

كما تبين لنا من أول السورة أن أهم صفتين عند المتقين أنهم: (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) وأيضا (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ).

ونأتي لهذا الصنف الثالث من الناس، وهم أهل النفاق (مَنْ يَقُولُ) بلسانه: (آمَنَّا بِاللَّهِ) فيقلدون المؤمنين (وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) والله يحكم عليهم أنهم: (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) فهذا هو لب المسالة؛ **أن هؤلاء المنافقين أزمتهم الحقيقية: أزمة إيمان،** فهم يقولون: (آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) والله يحكم عليهم أنهم: (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ).

وقولهم في الحقيقة إنما هو خداع به يخادعون أنفسهم، ولا يخادعون -كما يظنون- الله والذين آمنوا. فإن أعظم الخداع في خداع النفس: أن يخادع الإنسان أحدًا ويصدق أنه قد خدعه فيُخدع هو! ولذلك الله -عزَّ وجلَّ- يقول:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)(9)

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) بدعواهم هذه يخادعون الله والذين آمنوا، وفي الحقيقة: (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) معنى ذلك أن المخدوع على الحقيقة هم! نضرب مثالًا: يأتي فرعون يخادع قومه في أنه يريد أن يعرف الحقيقة فيقول لهامان: (ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ)[2].

الآن هو ماذا يفعل؟ يخادع قومه أنه يريد أن يبحث عن الحقيقة، وسأفترض أنهم يعلمون أنه يخادعهم، لكن لا يظهرون له أنهم يعلمون، يسايرونه على كذبه، فيصدق أنه خدعهم! ويكمل هذه الحال فيكون في الحقيقة هو الذي خُدع، لأنهم لما سكتوا ولم يبينوا له أنهم يعلمون كذبه

---

[2] () غافر: 36-37.

صدّق هو أنه استطاع أن يخدعهم، وهذا من أكثر أنواع البلاء على الإنسان.

وهذا يشبه ما قاله الصحابي عمرو ابن العاص -رضي الله عنه- لمسيلمة الكذاب لما تكلم بكلام يريد به أن يقابل القرآن، بكلام سخيف لا يقال، فوفد عمرو بن العاص على مسيلمة، وكان صديقًا له في الجاهلية، وكان عمرو -رضي الله عنه- لم يسلم بعد، فمسيلمة سأل عمرو: (ماذا أنزل على صاحبكم؟) يقصد الرسول ﷺ، فقرأ عليه سورة العصر، ففكر ساعة وقال: (قد أُنزل عليّ مثله!) فأسمعه كلامًا لا يستساغ، فقال له عمرو -وهنا ليس موقف مثل موقف فرعون- قال له عمرو -رضي الله عنه-: (وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ تَكْذِبُ) هنا كشف له الخديعة، هو يريد أن يخادعه، لو سكت عنه عمرو بن العاص -رضي الله عنه- مع علمه لخُدِع مسيلمة وظن نفسه أنه حقيقة استطاع أن يخدع عمرو، لكن عمرو -رضي الله عنه- رد عليه ردًا بيّن ذلك.

الشاهد أن هؤلاء عندما يلقون المسلمين ويدّعون الإيمان بالله واليوم الآخر، والمسلمون يرون تصرفات لا تليق، فيحسنون الظن أو يتجاهلون ويبتعدون، فهؤلاء يظنون أنهم قد استطاعوا أن يخدعوهم فيبقوا على خداعهم ويعيشون ويستمرون يتصرفون على أنهم مع المؤمنين، وأن المؤمنين مصدقون لهم، والمؤمنون لا يكونون في الحقيقة مصدقين لهم لكنهم لا يواجهونهم لأنه لا توجد مصلحة من المواجهة أو لا يواجهونهم لأنهم لا يستطيعون أن يحكموا على قلوب الخلق، وأن مجرد العلامات والإشارات قد تخطئ، فهم يخدعون لأنه لا أحد واجههم بأوصافهم الحقيقية؛ لذلك يقول الله -عزَّ وجلَّ-: (وَمَا يَشْعُرُونَ) فالله المستعان على هذا الشعور الذي قد يفقده الإنسان تجاه أعماله، فيخادع ويصدق أنه صاحب هذا الوصف، يخادع الناس بأن يصف نفسه بشيء من الكمال،

فتدور عليه أحواله وتزيد ويصل إلى حد أنه يصدق أنه حقًا من هؤلاء القوم المتقين المؤمنين، يصدق حقًا أنه من أهل الدعوة، ويصدق أنه من أهل الإيمان؛ لأنه حافظ للقرآن ، فنسأل الله أن يغفر لنا الدعاوى، ويغفر لنا التقصير ويغفر لنا ما نقع فيه ونحن لا نشعر من خداع، ويجعلنا على المحجة نسير على السبيل، لا نتناقض ولا ننافق، اللهم آمين.

الشاهد: أن هؤلاء هذا وصفهم الرئيس أنهم يقولون: (آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) والحقيقة الله يقول: (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) إنما أفعالهم هذه خداع. حالهم من أين أتى؟

(فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)(10)

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) نسأل الله أن يشفينا من أمراض القلوب، وكان الواجب عليهم:

- أن يطلبوا لمرضهم طبًا يتطببون به.
- أن يضعوا آيات الكتاب العظيم على مرضهم فتكون -بأمر الله- دواء يبرؤون من ورائه.

لكنهم لم يفعلوا هذا، لم يأتوا إلى القرآن فيطببهم، لم يأتوا إلى آياته ومعانيه ومفاهيمه فتعالجهم، إنما جعلوا يمررون الآيات على ألسنتهم دون أن تدخل إلى قلوبهم، ويصلون ويصومون مع المسلمين وقلوبهم خالية تمامًا من إدخال هذه المعاني ومن علاج أنفسهم. بسبب هذا: (فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) إذًا هم في حقيقتهم يكذبون. وأتت لهم صور:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(11))

وعندما تسمعهم وتناقشهم، يا للعجب! إنهم يصدقون أنهم مصلحون، والله يقول:

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ(12))

من أي وجه يقولون إنهم مصلحون؟ من وجه قناعاتهم أن آراءهم وتفكيرهم يصلح المجتمع، يظنون أن ما يقترحونه من أفكار بعيدة عن الإيمان بالله واليوم الآخر، مع وجود إرادة الإصلاح أن هذا دليل على أنهم مصلحون! وهم يقولون لأنفسهم إنهم يريدون الإصلاح لكن الكذب حبله طويل لهذه النفوس! فلا ينكشف سريعًا بالنسبة لهم، فيشبكون هذه الكذبة مع هذه وهذه مع هذه فيطول حبلها في داخلهم فما يتبين لهم، والله يقول: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) ومن صفاتهم الخطيرة جدًا التي نخافها على شبابنا:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (13))

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) يريدون الفلسفة، نؤمن كما آمن هؤلاء السفهاء، يعني بأي دليل يسير آمنوا وصدقوا وسلموا! كلما قال لهم العلماء شيئًا صدقوا! هؤلاء يصبحون سفهاء عندما يسلمون للحق والدين، في وجهة نظرهم، والله يقول: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ).

يزيد الأمر سوءًا أنهم:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15))

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) كل هذا لأنهم لا يؤمنون بالله ولا بكمال صفاته (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ) فترى من صفاتهم الواضحة:

- الاستهزاء بالدين وبأهله وبالشريعة، وبما يلحق بها.
- تراهم يتبرؤون من كل شعائر الدين، يستهزؤون بها، لا يبقى شيئًا عظيمًا عندهم.

لذا لا بد أن نكون حريصين في هذه الأيام من بعض الرسائل التي فيها استهزاء بالأخبار سواء بالأخبار التي تدل على أن الشياطين تحبس، أو أن الأجور تكتب، فإن السفهاء قليلو الديانة وقليلو العقل، أصبح عندهم الاستهزاء هو الدين يلعبون به، الله المستعان! قال الله في حقهم:

(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16))

تصور قوم باعوا الهدى واشتروا التجارة فمن المؤكد أن لا تجارة لهم تربح (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ).

ثم ضرب الله -عزَّ وجلَّ- لهم المثل:

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

والمثل الثاني:

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20))

كل ما مضى في الكلام عن المنافقين يقصد به: النفاق الأكبر، الذي هو: **إظهار الإيمان وإبطان الكفر**، أما النفاق العملي أو النفاق الأصغر الذي ورد في حديث النبي ﷺ: "آيةُ المنافقِ ثلاثٌ إذا حدَّثَ كذبَ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا اؤتمنَ خانَ"[3] وفي رواية "وإذَا خَاصَمَ فَجَرَ"، فهذا ليس موضوعنا لأن كل ما في القرآن من نفاق يقصد به: النفاق الأكبر، الذي يخرج صاحبه عن الملة، أما النفاق الذي فيه أربع صفات، فهذا نفاق أصغر وليس موضوعنا إذا استحكم وأصبح صفة الإنسان ما يكون حاله، هذا أمر آخر. نحن نريد أن نصل لهؤلاء الذين نافقوا نفاقًا أكبر ومن ثم كان حكمهم: حكم الكفر.

ضرب الله -عزَّ وجلَّ- لهم مثلين، وهما موضوعنا الأساس، فكان لا بد أن نقدم بمقدمة عن الإيمان وعن النفاق حتى نتصور هذان المثلان. والمثل عندما يضرب يراد به تقريب المعنى المعنوي بالحسي، فالمقصد أن الإنسان يستطيع أن يدرك أشياء حسية بحسه، في مقابل المعنوية لا يستطيع أن يدركها بحسه تمامًا، فإذا وصف له الأمر الحسي، قلنا: (ركّب على هذا الحسي المعنوي وتصوره تصورًا جيدًا تصل إلى المقصود.)

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ)

---

[3] () أخرجه البخاري (6095).

هنا مثل لهؤلاء المنافقين، فيه تشبيه للنفاق بحال قوم أوقدوا نارًا لتضيء لهم وينتفعوا بها، أين سيكونون؟ أكيد أنهم سيكونون في مكان فيه ظلمة، لتشتد حاجتهم للإضاءة وإلا لما كان منهم أن يستوقدوا نارًا؛ فهم في ظلمة، فاحتاجوا حاجة شديدة إلى النور فطلبوا النور من النار، فاستوقدوا.

لما طلبوا النور من النار أضاءت ما حول هؤلاء القوم، هناك فائدة من الإضاءة أبصروا من ضوئها ما ينفعهم وما يضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، قوم في سفر ضلوا الطريق، أوقدوا النار لتضيء لهم وهم في حاجة شديدة لها. لما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا، بسبب تصرفاتهم أطفئت تلك النار وبقوا في الظلمات لا يبصرون! وسدت على قلوبهم كل طرق العلم؛ لا يسمعونه بأذنيهم، ولا يرونه بعينيهم، ولا يعقلونه بقلوبهم.

فهؤلاء المنافقون، ككل الخلق مسافرون إلى ربهم، يحتاجون في الطريق إلى نور يضيء لهم الطريق فيصلون به إلى مقصدهم، فلما وجدوا نارًا وأضاءت لهم، وأبصروا ما ينفعهم ويضرهم بعد أن كانوا حيارى، كانت النتيجة: أنهم لم يحافظوا على هذه النار ولم يحافظوا على هذا الدفء الذي وجدوه؛ فذهب!

وهكذا حال المنافقين؛ أظهروا كلمة الإيمان، فأمنوا بها على أنفسهم وعلى أموالهم وأولادهم وناكحوا بها المؤمنين وقاسموهم الغنائم، لكنهم لم يحافظوا على الإيمان في قلوبهم فانطفأ هذا الإيمان (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ) فبقوا في الظلمات حائرين، وهذا يشبه قولهم للمؤمنين في سورة الحديد: (انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ).

إذًا هذا يبين لنا الآية السابقة: الله شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بهذا الذي استوقد نارًا لما أضاءت وانتفع وأبصر، وعرف ما في يمينه وشماله، وهو في هذه الحال ما حافظ على ناره؛ فانطفأت ناره وسار في ظلام شديد، وزائد على ذلك أصم لا يسمع أبكم لا ينطق، أصبح أعمى، لو كان في ضياء لما أبصر، فهذا حالهم في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى واستحبابهم الغي على الرشد. أيهما خير لك أيها المسافر، أن يكون معك ضوء فترى كل الحقائق أو ينطفئ هذا الضوء فلا ترى الحقائق؟! لا مجال للمقارنة، يعود للظلمة، فهكذا المنافق بحيرته وتردده بهذه الصورة.

وأتى المثل الثاني لهم: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ) هؤلاء القوم شُبِّه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ من النور والحياة، بالقوم الذين هم في سفر أيضًا ونزل عليهم المطر. هذا المطر في القرآن يأتي للتعبير عن المطر الذي نعرفه وعن الهدى، عندما يضرب في الأمثال في القرآن تنتقل من الحسي إلى المعنوي فترى الهدى لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر.

هذا المطر عندما ينزل من السماء حسيًا يكون فيه ظلمات ورعد وبرق، فماذا يتوقع؟ يتوقع أن هذه كلها تأتي بالمخاوف، لكن في النهاية هذا المطر تحيا به الأرض، الصيب فيه حياة البلاد والعباد والشجر والدواب.

والظلمات والرعد والبرق هذه مقصودة لغيره، وكأنها وسيلة إلى إكمال الانتفاع بذلك الصيب؛ لا بد أن يكون فيه رعد، هذا الصوت العالي، ولا بد أن يكون فيه برق، هذه أمور تحيط بالغيث. الجاهل عندما يأتي المطر

لا يفكر في الغيث الذي سينزل على الأرض، إحساسه عندما ينزل الغيث فقط يفكر بالظلمة والرعد والبرق ولوازم ذلك، ويفكر أن هذا المطر عندما ينزل سيعطل المسافر عن سفره والصانع عن صنعته، ولا يفكر أن هذا وراؤه الصيب الذي فيه الحياة والنفع العام! هذا بالضبط عقل هؤلاء، لا يجاوز نظرهم الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراء ذلك من كل محبوب. وهذا للأسف شأن منتشر ببين الناس، فكأن هؤلاء المنافقين، ضعيفي البصيرة، عندما ينظرون إلى جهاد أنفسهم وجهاد عدوهم الشيطان، وجهاد الكفار، لا ينظرون إلا إلى التعب والمشاق التي تكون فيه، وأنهم يتعرضون للتعب والمعاداة، ولا يفكرون إلى أي شيء يؤول هذا من العواقب الحميدة والغايات التي المفروض أن يتسابق فيها المتسابقون، ويتنافس فيها المتنافسون.

أقرب مثال يمكن أن يتصور: شخص يريد أن يذهب إلى العمرة، كل ما يفكر فيه أنى سأتعب في السفر، سأفارق أهلي، سأقاسي من السفر، سأفارق مكان نومي، سألقى أشخاصًا لا أعلم هل سأنسجم معهم أو لا! فلا يجاوز نظره آخر السفر، مآل السفر، عاقبة السفر، فهذا حال ضعفاء البصيرة.

هذه الآيات فيها تصوير لهؤلاء المنافقين عندما يسمعون القرآن، الوعد والوعيد والزواجر والنواهي والأمور الشاقة على النفس، والأمور التي يطلب فيها أن تخرج من مألوفك، تخرج من شهوتك، فيصبحون مثل الصبيان كأنهم لا يقوون على الفطام، فحين تأتي هذه الأمور في القرآن من الوعد والوعيد والزواجر والنواهي يجعلون أصابعهم في آذانهم ويمتنعون عن الانتفاع بهذا الصيب. فحين تسمعه -مثلًا- يخبر في القرآن عن أن الكافرين لهم عذاب النار، عن أن هؤلاء الكافرين سيخزيهم الله يوم القيامة، فينزعج من هذا الوعيد، يرى أن ما يصيب

الكفرة من البلايا والفتن في نفسه مثل الصواعق، فلا يتحملها، وهذا كثير اليوم من أناس يتركون حقائق الدين وما تدل عليه من الرحمة، ومن حياة القلوب، ويقولون: (الدين يرهّب ويخيف) نقول: (القرآن والدين كالصيب النافع، عندما ينزل لا بد أن تنزل معه أمور تلزمه هي شاقة بالنسبة لك لكنها في الحقيقة تعدل حال العبد).

فهؤلاء المنافقون والحيرة والدهشة التي هم فيها كقوم مسافرين أخذتهم السماء في الليلة المظلمة بصيّب فيه رعد وبرق وخوف من الصواعق، فترى هؤلاء (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) بمعنى يُذهب بها. هم أصلًا يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق، بمعنى يخافون أن يسمعوا صيحة يموت من يسمعها أو يُغشى عليه، هم يفعلون هذا خائفين (حَذَرَ الْمَوْتِ).

(يَكَادُ الْبَرْقُ) يقترب من أن يخطف أبصارهم، يختلسها، فهم يسمعون صوتًا عاليًا يخافون منه، ويرون برقًا شديدًا يخافون أن يخطف أبصارهم.

(كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) توقفوا، عندما يضيء لهم يسيرون لأن الدنيا ظلام وعندما يصبح ظلام يتوقفون، إذا أضاء لهم البرق في الظلمات مشوا وإذا أظلم عليهم وقفوا.

هذا حال المنافقين، شبههم الله في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في صحراء في ليلة مظلمة، أصابهم مطر فيه ظلمات، هذا المطر لا يمكن المشي فيه، فيه رعد من صفته:

- أن يضم السامعون أصابعهم على آذانهم من هوله.
- وبرق يكاد يخطف الأبصار ويعميها من شدة توقده.

فالمطر هو القرآن لأنه فيه حياة القلب كما أن المطر الحسي فيه حياة الأبدان. ما ذكر من الظلمات والرعد والبرق هذا ما يخوفون به من ذكر النار ومن ذكر أحوالهم وبيان ما في قلوبهم. فهؤلاء المنافقين عندما يسمعون القرآن وما فيه من مواعظ تخطف الأبصار، بعض المفسرين قالوا: "كأن هذا القرآن يبهر قلوبهم، فهم يسدون آذانهم من أجل ألا يسمعون القرآن" والبعض قال: "إن الله ضرب هذا المثل للدين والإسلام وهو مثل المطر، والظلمات: ما في الإسلام من بلاء ومحن، وما فيه من وعيد ومخاوف" جعلوا الظلمات هي البلاء والمحن الذي من الطبيعي أن يأتي على الإنسان والرعد: ما فيه من الوعد والوعيد في الآخرة. والبرق: ما فيه من الوعد والوعيد، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم إذا ما رأوا ما في الإسلام من بلاء وشدة، إذا رأوا في الإسلام شدة هربوا يحذرون الهلاك، وهذا كأن فيه إشارة إلى من (يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ)[4] انقلبوا على وجوههم، وضعوا أصابعهم في آذانهم.

فالله يقول: (وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) لا ينفعهم الهرب لأن الله تعالى من ورائهم يجمعهم ويعذبهم.

وهؤلاء (كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ) بمعنى أنهم إذا وقع لهم محبوبهم من الرخاء والغنيمة أظهروا الإيمان، وإذا أظلم عليهم رأوا الشدة والبلاء تأخروا ووقفوا، كما في آية الحج: (مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ).

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ) بمعنى أن الله -عزَّ وجلَّ- قادر على أن يذهب بكل ما يملكون، ولا ينفعهم ترك الإيمان إلى الكفر أبدًا، فإن الله

---

[4] () الحج: 11.

-عزَّ وجلَّ- قادر على أن يذهب بأموالهم فلا يبقى لهم شيء ولا ينتفعون بشيء.

إذًا أهل الإيمان يعلمون عن هذا الدين العظيم أنه غيث من الله، وعطاء (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا)[5] فهم يرون أن هذه نعمة عظيمة، وهؤلاء لا يرون إلا ما فيه مصالحهم، فإنهم إذا نظروا للإسلام ووجدوا فيه ما يلزم من كون أن هناك وقت يصبح فيه ظلمات، ويصبح فيه رعد وبرق؛ في هذا التوقيت يصبح هذا الدين لا يناسبهم!

فإذا انتصر الإسلام وأصبح ذا شأن، أصبحوا من أهله، وهكذا يتنقلون على حسب مصالحهم وهذا من أعظم أحوال النفاق: أنهم لا يستأنسون بالإسلام إلا إذا أصابوا عزًا، وإن أصاب الإسلام نكبة يرجعون إلى ما كانوا عليه، ولا يقبلون ما فيه، ولا يصبرون على ما ابتلاهم الله به.

فعلى كل الأحوال أهل النفاق ينقصهم الإيمان والثقة واليقين بما عند الله -عزَّ وجلَّ- وما عنده من اختبار، وكيف أن الله لا بد أن يميز بين أهل الإيمان وبين أهل النفاق، فإن براهين القرآن القاطعة على صدقه تكاد تخطف الأبصار من شدة وضوحها، وهم كلما رأوا في الدين راحة مشوا فيه، وإذا رأوا فيه جهاد وتعب وقفوا. فكان الواجب عليهم عندما يكون الأمر واضح بهذه الصورة، بمعنى أن ما في الإسلام وما في الدين والقرآن من آيات باهرات، كان المفترض أن يقع في قلوبهم اليقين بصدق القرآن العظيم، ولا ينتظرون فقط المصالح عندما تأتيهم، إذا وافقت هواهم أصبحوا من أهل الإيمان، وإذا لم توافق هواهم أصبحوا من أهل الكفر (مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ)[6] نعوذ بالله من الخذلان.

---

[5] () الرعد: 17.
[6] () النساء: 143.

نختم لقاءنا بالتأكيد على شأنين:

الشأن الأول:

أن النفاق ينقسم إلى قسمين:

- نفاق أكبر.
- ونفاق أصغر.
  - أو نفاق عملي ونفاق اعتقادي.

✔ النفاق الاعتقادي: هو المخرج عن دائرة الإسلام.

✔ أما النفاق العملي: الذي ذكر في الحديث "آيةُ المنافقِ ثلاثٌ". فهذا النفاق لا يخرج عن دائرة الإسلام.

والنفاق الاعتقادي لا يوجد إلا عندما يقوى الإسلام، عندما يصبح هناك مال ودولة، ويصبح التنافس على الثروات؛ يأتي المنافقين. في مكة لم يكن هناك منافقين، لكن عندما وقعت موقعة بدر وأظهر الله المؤمنين وأعزهم؛ ذلّ من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفًا، مخادعة، من أجل أن تحقن دماؤهم وتسلم أموالهم، هم الذي يهمهم أموالهم ودينهم، فكانوا بين أظهر المسلمين وفي الحقيقة أنهم ليسوا منهم؛ لذلك جلاهم الله بوضوح في الآيات، ومن لطائف المسائل ما ذكره الشيخ السعدي وهو يشرح هذه الآيات فقال:

"من لطف الله بالمؤمنين، أن جلّا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضًا عن كثير من فجورهم"

إذًا عندما نقرأ أوصافهم هنا ونقرأ واقعهم هناك لا نستعجب ما هم عليه، ويبقى علينا فقط: أن نتيقن بالله العظيم، وبأنه هو مُنجّي المؤمنين من كيد الكائدين.

نسأل الله بمنه وكرمه أن يجعلنا ممن اتقى وآمن بالله وبالغيب وباليوم الآخر، **وهذا هو الشأن الثاني الذي نود أن نؤكد عليه:** وهو: أن مقابل هذه الصفات هناك صفات أهل الإيمان الموقنين الذين يثقون بالله ويؤمنون به وباليوم الآخر، نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يجعلنا من هؤلاء.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.